عنوان البحث:

مكة المكرمة، فضلها، وحضارتها في ضوء الهدايات القرآنية

اسم الباحث/ـة

د/ مايو إدريس يونس بحر

بسم الله الرحمن الرحيم

مـقـدمـة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصطفى.

أما بعد

فلمَّا خلق الله تعالى الكائنات؛ لم يجعلها في مستوىً واحدٍ من علوِّ الفضل وشرفِ المنزلة، بل فاضلَ بينها في المزايا والمناقب، حتى صارت في أشكالٍ هرميَّة، تمثِّل قاعدتُها عامَّةَ المخلوقات من ذلك النوع، ثم يتدرَّجُ الهرم في الارتفاع، ويضيقُ في الحجم، ليكون رأسه هو الأفضل والأشرف في جنسه. ولما أضاءَ الله جل جلاله الأرضَ بإنزالِ القرآن؛ جَمَعَ له الفضلِ، فكانَ هو أفضل الكتب، وأنزله في أفضلِ الشهورِ، وفي أفضلِ الليالي، وعلى أفضلِ الأنبياء، وفي أفضلِ البقاعِ، مكةَ المكرمة، قلب العالم النابض، وقِبْلة الإسلام والمسلمين.

وإيمانًا مني بالأفضليةِ المطلقة، والمكانةِ المرموقة لمكة المكرمة، وانطلاقًا من يقيني بثراء الهدايات القرآنية وتضمُّنها للمعاني والدلالات التي قد لا تظهر من ألفاظِ القرآنِ وتفسيره؛ فإنَّه يطيب لي أن أشاركَ في المؤتمر العلمي الموسوم بـ هدايات القرآن في بناء الإنسان بورقة علمية بعنوان: مكة المكرمة، فضلها، وحضارتها، في ضوء الهدايات القرآنية.

أهمية الموضوع:

عرفت البشرية على مرِّ تاريخها الطويل على الأرض أشكالًا مختلفة من الحضارة، في بقعٍ جغرافيةٍ متباعدة، وعلى أسسٍ وقواعدٍ متباينة، وأبرز وأهم محطات الحضارة في مادتها وتوقيتها وموقعها؛ هي حضارة مكة المكرمة، وهنا تكمن أهمية هذا الموضوع إجمالًا،

ويمكن تلخصيها في النقاط المحورية الآتية:

١. أن مكة المكرمة مدينة عريقة وقديمة بقدم الوجود الإنساني على الأرض، وذات أهمية دينية قصوى للمسلمين ودراسة كلّ ما يتعلَّق بها يُعتبر قربى وعمل صالح.
٢. أن مراحل وملامح الحضارة الإنسانية في مكة المكرمة قد ذكرت في القرآن الكريم بصورة ظاهرة أو ضمنية، وحسب علمي أنه لم يتم تناولها في دراسة مستقلة
٣. أن هذا البحث يسعى إلى الوصول لمعرفة جديدة تتعلق بمكة وحضارتها في ضوء الهدايات القرآنية، ويترتَّب على ذلك جانبًا عمليًا يتمثَّل في المزيد من التقديس لمكة، وتعظيمها، وتعليق القلوب بها، والمزيد من تعزيز مكانة الهدايات كمصدرٍ أصيلٍ من مصادر العلم والمعرفة.

أهداف الدراسة:

١. إظهار خصائص مكة ومميزاتها الجغرافية والحضارية.
٢. إبراز مكانة مكة الدينية.

٣. التدليل على استيعاب القرآن الكريم لتوثيق وحفظ الحضارة الإنسانية.

٤. التأكيد على شمول الهدايات القرآنية لجميع المجالات المعرفية.

المنهج المتبع: الاستقرائي التحليلي، الذي يعتمد على جمع الآيات المتعلقة بالموضوع واستنباط هداياتها، وتقسيمها حسب مباحث الدراسة.

مشكلة البحث:

تظهر مشكلة البحث من خلال الأسئلة المحورية الآتية:

ما مكة المكرمة؟ ما أسمائها وخصائصها؟

ما الحضارة؟ ما مفهوم الحضارة الإسلامية؟

ما مكونات ومراحل حضارة مكة في ضوء الهدايات القرآنية؟

هيكل البحث:

الفصل الأول: التعريف بمكة المكرمة وبيان خصائصها.

المبحث الأول: التعريف بمكة المكرمة:

المسألة الأولى: التعريف بمكة جغرافيًا.

المسألة الثانية: أسماء مكة التي وردت في القرآن الكريم.

المسألة الثالثة: معاني أسماء مكة المكرمة.

المبحث الثاني: فضائل وخصائص مكة المكرمة الواردة في القرآن الكريم

الفصل الثاني: حضارة مكة المكرمة في ضوء الهدايات القرآنية

المبحث الأول: تعريف الحضارة لغة واصطلاحًا وبيان مفهوم الحضارة الإسلامية

المسألة الأولى: تعريف الحضارة في اللغة .

المسألة الثانية: تعريف الحضارة في الاصطلاح.

المسألة الثالثة: الحضارة وفق المفهوم القرآني.

المسألة الرابعة: مكونات الحضارة في القرآن الكريم.

المبحث الثاني: علاقة مكة بالحضارة الإسلامية

المسألة الأولى: علاقة مكة بمضمون الحضارة

المسألة الثانية: علاقة مكة بإنسان الحضارة

المسألة الثالثة: مراحل حضارة مكة المكرمة وكيفية الاستفادة منها

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع – فهرس الموضوعات

الفصل الأول: التعريف بمكة المكرمة وبيان خصائصها

المبحث الأول: التعريف بمكة المكرمة

المسألة الأولى – التعريف بمكة جغرافيًا:

مكة المكرمة مدينة غير ساحلية، تقع في الجهة الغربية من المملكة العربية السعودية، على واحدٍ وعشرين درجة تقريباً عرضاً شمالياً، وعلى نحو أربعين درجة طولاً، ترتفع عن سطح البحر بنحو مئتين وثمانين متراً، موقعها على امتداد سفوح جبال السروات، وتمثِّل نقطة التقاء سهول تهامة بالجبال التي تحيط بمكة من جميع الجهات، وتحتضن مكة وادي إبراهيم الخليل الذي ينحصر بين سلسلتي جبالٍ متقاربة من جهات الشرق والغرب والجنوب، تَنْحَدِر سيول مكة في الوادي الذي تقع فيه، وإذا عصفت الرياح في مرتفعات الجبال اندفعت إلى بطن الوادي فيما يشبه الدوامات، وتعذَّر تعيين ملتقى الرياح إلا في بعض الحالات. مكة شديدة الحرارة صيفاً دافئةٌ شتاءً، تختلف حرارتها بين ثمانية عشر درجة في شهور الشتاء وثلاثين درجة في شهور الصيف، وقد ترتفع عن ذلك أحيانًا، يبلغ ارتفاعها ما بين مئتين وخمسين مترًا إلى ثلاثمائة وخمسين مترًا فوق سطح البحر من الغرب إلى الشرق، بما في ذلك المشاعر المقدسة(١).

تكوَّنت منطقة مكة المكرمة عمومًا ضمن تشكيلات الدرع العربي المكوَّن من الصخور القديمة والتي تمثِّلها معظم جبال مكة المكرمة، أما الأودية فتغطيها ترسُّبات الحصى والرمل، ومعظم هذه الأودية التي تتشكَّل منها مكة المكرمة تتبع في تكوينها حركات الصدوع والانكسارات التي مرّت بالدرع العربي خلال الأزمنة الجيولوجية القديمة. تتميز مكة المكرمة باختلاف تضاريسها، حيث تتناثر التلال والجبال التي اتَّخذَها الأهالي مناطق عُمْرانية لمساكنهم(٢).

المسألة الثانية – أسماء مكة المكرمة التي وردت في القرآن الكريم:

مكة مدينة، وموقع جغرافي، فهي مكان، ولذلك يحسن تعريف المكان قبل إيراد أسماء هذا المكان.

عُرِّف المكان بأنه الموضع، أو موضع كون الشئ وهو حصوله، ومنه قوله جل جلاله:﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ مريم: ٢٢(٣)،

وعرِّف بأنه المساحة الظرفية التي فيها الإنسان، ويقع فيها الحدث الإنساني،

ولذلك فإن المكان في اللغة يقع بشكل عام في دائرة المعارف، وأسماء الأماكن تقع بين نوعين من المعارف في اللغة أحدهما: العَلَم وهو ما علق على شيء بعينه غير متناولٍ ما أشبهه، أو ما وضع لمعين

(١) ينظر: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الخطاط (٢/ ٧)

(٢) ينظر: جغرافية مكة المكرمة، عبد الله دهيش (ص: ١-٢)

(٣) المعجم المحيط، اللجمي وآخرون (ص: ١٧٤٢)

لا يتناول غيره[1]، وقد يتكرر اسم المكان لأكثر من مكان كما تكررت أسماء الأعلام في الإنسان، وقد ينفرد مكان بأسماء لا تتكرر لغيره[2].

لمكة المكرمة أسماء كثيرة تدل على عِظم مكانتها، وعلو قدرها، ذكرها العلماء نثرًا ونظمًا[3]، واختلفوا في عددها بين مُقلٍّ ومُكثر، حتى أوصلها بعضهم إلى خمسين اسماً[4]، منها ما ذُكر في القرآن الكريم، ومنها ما ذُكر في السنة، ومنها ما ذَكره المحدّثون والمؤرّخون، سأقتصر هنا على ما ذُكر في القرآن الكريم، وترجَّح بالبحث أنه اسم لمكة، وهي خمسة أسماء، ترتيبها بحسب شهرتها واستعمالها: مكة، أم القرى، البلد أو البلد الأمين، بكة، والبلدة.

١. **مكة:** وهي أبرز أسمائها وقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى:﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ الفتح: ٢٤.

٢. **أم القرى،** وردت في ثلاثة مواضع، هي، قوله تعالى:﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ الأنعام: ٩٢ وقوله:﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ الشورى: ٧. والثالث قوله جل جلاله:﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ﴾ القصص: ٥٩.

٣. **البلد،** ورد ثلاث مرات بدون وصف في قوله:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ إبراهيم: ٣٥، وقوله جل جلاله:﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ البلد: ١، وقوله سبحانه:﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ البلد: ٢، ومرة واحدة موصوف بـ"الأمين" في قوله عزَّ وجل:﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ التين: ٣ .

٤. **بكة،** ورد مرة واحدة في قوله:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ آل عمران:٩٦.

٥. **البلدة،** ورد مرة واحدة في قوله:﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ النمل:٩١.

---

(١) ينظر: شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام (ص: ٩٦)، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي (١/ ٢٨١)

(٢) مكة المكرمة السمات والقسمات قراءة في عبقرية المكان، ردة الله الطلحي (ص: ٢٤٥)

(٣) ممن ذكرها نثرًا مجد الدين الشيرازي في كتابه: "تحبير الموشين في التعبير بالسين والشين"، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن عقبة المعروف بالأزرقي في كتابه: "أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار"، محمد بن أحمد بن علي، الفاسي في كتابه: "شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام"، وممن نظمها القاضي أبو البقاء بن الضياء الحنفي في سبعة أبيات قال في أولها:

لمكة أسماء ثلاثون عدّدت * * * * * * ومن بعد ذاك اثنان منها اسم مكة

(٤) عدَّها النووي ستة عشر اسمًا ، ومحمد طاهر بن عبد القادر الخطاط عدَّها ثلاثين اسما، وعدَّها القاضي أبو البقاء الحنفي اثنين وثلاثين وجمعها في نظم كما سبق، أما مجد الدين الشيرازي فقد زادت عنده عن الأربعين، ينظر: (أخبار مكة، الفاكهي (٢/ ٢٦٥)/ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٧٢)/ التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم (١/ ٦٣)

وقد عدَّ محب الدين الطبري أسماء مكة الواردة في القرآن خمسة فقال:

"سمى الله تعالى مكة بخمسة أسماء: مكة، وبكة، والبلد، والقرية، وأم القرى"[١]. وقد اتفقتُ معه في العدد، واختلفت معه في عد "القرية" و"البلدة"، إذ أنه حسب الأولى في الأسماء، ولم يحسب الثانية، وفعلتُ العكس، وسيتَّضح صحة ما اعْتُمِدَ في البحث بعد بيان المعاني وبعد المقارنة بمن اختلف في العدد عن الخمسة –بإذن الله تعالى–.

أما الفاسي فقد عدَّ أسماء مكة "ثمانية" في كتابه شفاء الغرام، فأضاف إلى ما ذكرت، "معاد" و"القرية"

وفرَّق بين "البلد" و"البلد الأمين"، وبعد البحث والتَّقصي والنظر لم يظهر لي أن الراجح في معاد أنها اسم لمكة، فقد اخْتُلفَ في كلمة (مَعَادٍ) في قوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ القصص: ٨٥، **على خمسة أقوال**، هي:

١. مكة.

٢. الجنة.

٣. الموت.

٤. يوم القيامة.

٥. بيت المقدس[٢].

وكلها محتملة، ويتوجَّه على وفقها المعنى، وحتى لو كان (مَعَادٍ) المقصود به مكة قولًا واحدا فلا يقتضي أن يكون اسمًا لها، لأن المعاد في اللغة: هو كل أمر تصير إليه[٣].

وأما عدَّه للقرية من الأسماء، فقد ورد لفظ القرية في القرآن الكريم في عشرة مواضع، في واحدٍ منها كان المراد "مكة" وهي قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ النساء: ٧٥.

وليس فيها ما يدلُّ على أنه اسمها، أو أنها تختص به، فمكة قرية وصفًا لا اسمًا،

و"إنما هي في هذا الموضع فيما فسَّر أهل التأويل مكة"[٤].

وأما "البلد" و"البلد الأمين" فيعودان إلى اسم واحد، ذُكِر موصوف مرة، وغير موصوف مرات، لحكمةٍ وسر.

---

(١) القرى، محب الدين الطبري (ص:٦٥٠)

(٢) ينظر: تفسير مقاتل (٣/ ٣٥٩)/ تفسير يحيى بن سلام (٢/ ٦١٣)/ تفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٩٨)/ تفسير الطبري (٣٤٦/١٨)

(٣) ينظر: العين، الفراهيدي (٢/ ٢١٨)/ مجمل اللغة، ابن فارس (ص: ٦٣٥)

(٤) جامع البيان، الطبري (٧/ ٢٢٥)

ونخلص من ذلك أن أسماء مكة التي وردت في القرآن الكريم، ولم يختلف حولها العلماء المتقدّمين ولا المتأخّرين هي خمسة، وأن أكثرها ورودًا هو (ٱلۡبَلَدِ) حيث ورد ثلاث مرات، ومع وصف الأمين مرة واحدة،

و(أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ) تكرر ثلاث مرات واحدة منها بلفظة (أُمِّهَا) أما (مَكَّةَ)، و(بكة)، و(ٱلۡبَلَدَةِ) فكل واحد منهم ورد مرة واحدة فقط.

المسألة الثالثة – معاني أسماء مكة المكرمة:

أسماء الأمكنة من الأعلام، ولكل عَلَم معنى اشتُق منه، ووجهًا للتسمية به، وسأذكر معاني أسماء مكة مرتَّبة بحسب ورودها في القرآن الكريم، لأن ترتيب القرآن رباني ومقصود[1]، وهذا الأمر له تأثير على ترتيب السور وعلى المضامين والمقاصد، والموضوعات، فربما ظهرت لنا هدايات تشير إلى حضارة مكة من خلال ترتيب أسمائها في القرآن.

*** أول اسم لمكة في القرآن ورد في سورة آل عمران وهو اسم (بكة)**

– **(بَكَّ)** الْبَاءُ وَالْكَافُ فِي الْمُضَاعَفِ أَصْلٌ يَجْمَعُ التَّزَاحُمَ وَالْمُغَالَبَةَ، الْبَكُّ دَقُّ الْعُنُقِ، وسُمِّيَتْ مكة بَكَّةَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَبُكُّ أَعْنَاقَ الْجَبَابِرَةِ، إِذَا أَلْحَدُوا فِيهَا بِظُلْمٍ لَمْ يُنْظَرُوا. وَيُقَالُ: بَلْ سُمِّيَتْ بَكَّةَ لِأَنَّ النَّاسَ بَعْضُهُمْ يَبُكُّ بَعْضًا فِي الطَّوَافِ، أَيْ: يَدْفَعُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: أَيْ: يَتَبَاكُّونَ فِيهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وبكَكْت الرجل أي: رددت نخوته[2].

*** ثاني أسماء مكة من حيث الترتيب هو (أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ)، ورد أول مرة في سورة الأنعام.**

ولأنها مركبة تركيب إضافي لا يكتمل ظهور معناها إلا بتعريف شقّيها..

– **القرية:** الْمصر الْجَامِع، وكل مكان اتصلت به الأبنية واتُخذ قرارًا، والقِرْيةُ لغة يمانية .

ومن ثم اجتمعوا في جمعها على "القُرْى"، والقرية سميت بذلك لِاجْتِمَاع النَّاس فِيهَا، فهي الْأَبْنِيَة الَّتِي تجمع النَّاس، من قريت المَاء فِي الْحَوْض أَي: جمعته، والقرْية مِنَ الْمَسَاكِنِ والأبنية: الضِياع، وقد تطلق عَلَى المدُن، تكون كل مدينة قرية، ويقال: القرية بلدة أَصغر من المدينة، والاجتماع في كليهما من نوع الاجتماع غير الكامل[3].

---

(١) الراجح من أقوال العلماء أن ترتيب الآيات، وترتيب السور توقيفي، وأن من وراء الترتيب أسرار وحكم وفوائد جمة، ينظر في بسط الخلاف واختيار الراجح وسبب الرجحان (المحرر الوجيز، ابن عطية (١/ ٤٩)، الانتصار للقرآن، الباقلاني (١/ ٢٨١)، جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي (١/ ٢٩٨)، البرهان في علوم القرآن، الزركشي (١/ ٢٥٧)

(٢) ينظر: العين، الخليل (٥/ ٢٨٥)/ التقفية في اللغة، البَندنيجي (ص: ٦١٣)/ مقاييس اللغة، ابن فارس (١/ ١٨٦)

– **الأمُّ**: هي الوالدة القريبة التي ولدته، والبعيدة التي ولدت من ولدته، ولذلك قيل لحواء عليها السلام أُمُّنا وإن كثرت الوسائط، وكل من كان أصلًا لوجود شيء، أو تربيته، أو إصلاحه، أو مبدئه "أم"، ومن ثم قالوا أم الشيء أصله، وكل شيء ضم إليه جميع ما يليه يسمى أُمًّا، ومنه قوله:﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ الزخرف: ٤، أي: اللوح؛ لأن العلم كله منسوب إليه ومتولّدٌ عنه، وقيل لمكة "أم القرى" لأنها أصل القرى، ولأن الدنيا دحيت من تحتها، أو لِأَنَّهَا توسطت الأَرْض فِيمَا زَعَمُوا، أَو لِأَنَّهَا قبْلَة النَّاس يؤمونها،

أَو لِأَنَّهَا أعظم الْقرى شَأْنًا، أَو لتقدمها على سَائِر الْقرى، أو لأن فيها بيت الله جل جلاله، ولما جرت العادة أن بلد الملك وبيته مقدَّمان على جميع الأماكن سميت "أمًّا" لأن الأم متقدِّمة[1].

*** ثالث الأسماء حسب ترتيب المصحف هو (ٱلۡبَلَدِ)، ورد أول مرة في سورة إبراهيم.**

– **البَلَدُ**: كلُّ موضعٍ مستحيز من الأرض، عامرٍ أو غيرِ عامرٍ، خالٍ أو مَسكون، والطائفة منه بَلْدةٌ، والجميع البِلاد. والبَلَدُ اسمٌ يقع على الكُوَر، والبَلَدُ المقبرة، ويقال: هو نَفسُ القَبْر، ورُبَّما عُنِيَ بالبَلَد التُّرابُ، والبَلَدُ: جِنْسُ المكانِ، كالعِراقِ والشَّأمِ. والبَلْدَةُ: الجُزْءُ المخَصَّصُ منه، كالبَصْرَةِ ودِمَشْقِ. وسميت مكة البَلَدُ: تَفْخِيماً لها، كالنَّجْمِ للُّثرَيّا، والعُودِ للمَنْدَلِ، والبَلْدَةُ والبَلَدُ: التُّرابُ. والبَلَدُ: ما لم يُحْفَرْ من الأَرْضِ ولم يُوقَدْ فيهِ[2].

*** رابع الأسماء ورودًا هو (ٱلۡبَلۡدَةِ)، جاء في سورة النمل، وقد وضح معناه مع الاسم السابق.**

ومن اللطائف التي يستفاد منها في حضارة مكة المكرمة، أن أول ورود لها في القرآن بصفة (بَلَدًا) جاء في دعاء إبراهيم عليه السلام:﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾ البقرة: ١٢٦، وهنا لا يكون اسمًا لها، ثم أتى الاسم بدون وصف في سورة إبراهيم:﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا ﴾ إبراهيم: ٣٥.

وأخيرًا أتى موصوف بـ"الأمين" في سورة التين! وقد تداخلت في الذكر كالنحو التالي: بلدًا – البلد– البلدة – البلد – البلد – البلد الأمين.

*** خامس الأسماء هو (مَكَّةَ) ورد في سورة الفتح.**

---

(٣) ينظر: العين (٥/ ٢٠٣)، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٦/ ٤٩٦)، المطلع على ألفاظ المقنع، ابن أبي الفتح (ص: ١٣٢)

(١) ينظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري (١٠١/٢)/ الفائق في غريب الحديث، الزمخشري (١٢٦/١) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي (ص:٦٢)/ الكليات، الكفوي (ص:١٧٦)/ مرعاة المفاتيح، الرحماني المباركفوري (٤٦٠/٩)

(٢) ينظر: العين (٨/ ٤٢)/ المحكم والمحيط الأعظم (٩/ ٣٤٢)/ مشارق الأنوار على صحاح الآثار، اليحصبي (١/ ٨٩)

– الملكُّ الازدحام، كالبك، والتمكك: الاستقصاء، مك الصَّبِي ثدي أمه يمكه مكًّا إِذا استقصى مصَّه، وَكَذَلِكَ كل راضع، وامْتَكَّ إذا امتص كل ما فيه من اللبن، ومك الْعظم مكاًّ، وامتكه، وتمككه، وتمكَّكه: امتص مَا فِيهِ من المخ، وَاسم ذَلِك الشَّيْء: المكاكة والمكاك، ومكَّه يمكُّه مكاًّ: أهْلَكه[1].

وسميت بلد الله الحرام (مَكَّةَ) لقلَّة المِاء بهَا لأَنهم كَانُوا يمتكون المِاء أَي: يستخرجونه، ولِأَنَّهَا كَانَت تمكُّ من ظلم فِيهَا أَي: تنقصه وتهلكه، وتمكُّ الفاجر عنها، أي: تخرجه، ولأنها تَمُكُّ الذنوب: أي تذهب بها كلها، أو تُنْقصها، ولاجتذابها النَّاس من كل أفق، وقيل: لأنها تجهد أهلها، من قولهم: تمكَّكت العظم إذا أخرجت مخَّه[2].

وقد ظهر من بيان المعاني أن هناك فرق في المعنى وفي سبب التسمية بـ(مكة) و(بكة)، ولكن **هناك اختلاف** آخر في ذات المسمى أو الجزء المسمى على **خمسة أقوال كما يلي:**

١. بكة موضع البيت، ومكة القرية، وهذا يروى عن إبراهيم النخعي.

٢. بكة موضع البيت، ومكة الحرم كله، وهذا يروى عن يحيى بن أبي أنيسة.

٣. بكة ما بين الجبلين، ومكة الحرم كله.

٤. بكة الكعبة والمسجد الحرام، ومكة ذو طوى، وهذا يروى عن زيد بن أسلم.

٥. بكة البيت، وما حواليه مكة، وهذا يروى عن مجاهد[3].

والخلاصة أن "بكة" أخص من "مكة"، فيطلق على الجزء الأصغر والأخص: بكة، وعلى الأعم والأحوى: مكة، فإذًا بكة هي جزء من مكة، لأنه لا يُتَصوَّر خروج الأصغر الذي يتوسَّط الموقع عن التسمية بالأكبر.

(١) ينظر: جمهرة اللغة، ابن دريد (١/ ١٦٦)/ غريب الحديث، الخطابي (٣/ ٧٢)

(٢) ينظر: جمهرة اللغة (١/ ١٦٦)/ تحرير ألفاظ التنبيه، النووى (ص: ١٣٤)/ الكليات (ص: ٢٥٣)

(٣) ينظر في الأقوال: التفسير من سنن سعيد بن منصور (٣/ ١٠٦٩)/ جامع البيان، الطبري (٦/ ٢٤)/ غريب الحديث، ابن قتيبة (١/ ٤٧٥)/ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٦٧)

المبحث الثاني: فضائل وخصائص مكة المكرمة الواردة في القرآن الكريم

مكة المكرمة هي خير أرض الله جل جلاله، قبلة المصلين، ومقصد الحجَّاج والمعتمرين، قرة عين المسلمين، وأحب بقاع الأرض للمؤمنين، تجتمع فيها شعائر دينية، ومعالم تاريخية، والحديث عنها هو إظهار لأكبر وأعرق دعوة وصياغة حضارية فكرية، وقد ورد في فضائلها وخصائصها عدة نصوص وآثار، لم تجتمع لبقعة أخرى على الأرض، سأقتصر هنا على تعديد الفضائل التي وردت في القرآن الكريم، وبعض ما جاء في السنة المطهرة، محكومة بحجم البحث، وبأنه معنيٌّ بهدايات النصوص القرآنية لاستخراج الحضارة المكية منها..

من أهم خصائص وفضائل مكة المكرمة:

١.احتواؤها لأفضل وأول بيت لله قال تعالى:﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران: ٩٦.

الأولية المطلقة هي أبرز وأهم خصيصة من خصائص مكة المكرمة، لأن وجودها مرتبط بوجود بيت الله الحرام الذي ثبتت أوليته بالنص القرآني، وإن كان الحديث: " دُحِيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة"(١)، ضعيف؛ فإن تسميتها بـ"أم القرى" يشير إلى أنها أول ما خُلِقَ من الأرض، فإذًا الأولية ليست للمسجد الحرام فقط، وإنما هي أولية مكة كمدينة، قبل أولية البيت، فهي خصيصة مضمَّنة في خصيصة احتوائها للبيت الحرام.

وقد ذُكِرَ المسجد الحرام في القرآن الكريم سبع عشرة مرة(٢)، وذكر البيت عشر مرات، اثنين منهما موصوف بالعتيق، ومرة غير معرَّف(٣)، ونسبه الله تعالى إلى نفسه "بيتي" في موضعين(٤) ، أما غير المسجد الحرام فلم يُنْسب لله بالضمير في سائر القرآن الكريم، وستأتي جلَّ هذه الآيات في ثنايا الكلام عن حضارة مكة المستنطة منها.

وهذه الخصيصة المتفرِّدة لمكة تجعلها تُحْظَى بكل فضائل المسجد الحرام، باعتبار أنها مكانه، وأنَّه يتوسَّطها، وللمسجد العديد والفريد من المزايا، ولكن يَحْسُن أن أذكر خصيصة واحدة، لأنها تظهر

---

(١) ينظر الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي حكم عليها الحافظ ابن كثير في تفسيره (ص: ٣٣)

(٢) بلفظ : ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أو ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ في خمسة عشر موضع، سورة البقرة الآيات: ١٤٤-١٤٩-١٥٠-١٩١-١٩٦-٢١٧ /المائدة: ٢/ الأنفال: ٣٤ / التوبة: ٧- ١٩- ٢٨/ الإسراء: ١ / الحج: ٢٥/ الفتح: ٢٥-٢٧ وبلفظ:﴿ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ في موضعين، المائد: ٢-٩٧.

(٣) بلفظ:﴿ٱلْبَيْتِ﴾ غير موصوف في سبعة مواضع، البقرة: ١٢٥- ١٢٧ – ١٥٨،آل عمران: ٩٧/ الأنفال: ٣٥/ الحج: ٢٦/ قريش: ٣/ ووصف بـ ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾في الحج: ٢٩- ٣٣، وغير معرفٌ ﴿بَيْتِ﴾ في سورة آل عمران: ٩٦

(٤) في سورة البقرة: ٢٥/ الحج: ٢٦.

كخصيصة مشتركة بين مكة كمدينة وبين المسجد، وهي كونه قبلة المسلمين، ووجه اشتراكها أن الراجح من أقوال الفقهاء أن المصلي لا يتعيَّن عليه استقبال عين الكعبة، بل يكفيه أن يكون في مقابلتها [1].

وهذا يظهر لمن كان خارج مكة، وكل ما كان أبعد كان ذلك أظهر، إذ يكون اتجاهه نحو مكة عمومًا.

٢. أنها قبلة المسلمين الحسية والمعنوية، لقوله تعالى:﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ البقرة: ١٤٤ ،مكة المكرمة يتجه نحوها المصلين بأجسادهم كل يوم خمس مرات أو يزيد، وقد "سميت القبلة قبلة لأن المصلي يقابلها وتقابله"[2]، ولأن المسجد ليس على طرف مكة؛ فإن كلَّ مصل يكون في قبالة مكة في صلاته.

ويعدُّ ذلك من "تمام شرف مكة، واتِّسامها بسمة تجعلها ليست مركز الأرض فحسب، ولكن جاذبة الأطراف إليها، إذ مَنَّ الله على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وأرضاه بأن جعل المسجد الحرام (القبلة) من أي موقع:﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ البقرة: ١٤٤.

وإذا كان كل مساجد الأرض أضحت ذات محاريب؛ وأن محاريبها في حائط قِبْلتِها؛ فإن ما يتمايز به المسجد الحرام أنه بلا محراب، وكأنه محراب الدنيا كلها، وصار من سمتِ الجهات في البلاد الإسلامية أن تكون الجهة التي يُصَلَي إليها تسمى (القبلة)،

كما أن أركان الكعبة المشرفة ذاتها أضحت تُسمَى بأسماء الجهات، وكأنها تتطلع إلى الأمكنة أو تجذبها إليها، فركنٌ يسمى الركنُ العراقيُّ، والآخر الشاميُّ، والثالث اليمانيُّ وذهب الرابع بفضل الحجر الأسود إلى التمايز حتى عن الجهةِ نفسها!![3]. وهذه الخصيصة التي تصوِّر مكة وكأنها مغنطيس يجذب إليه الأشياء من سائر الاتجاهات؛ توحي أو ترجِّح الخصيصة التالية..

٣.مكة المكرمة هي مركز الأرض، ومنها يشع النور الذي يبدِّد ظلمة الأرض:

هذه الخصيصة لمكة المكرمة ليست لها آية تَنصُّ عليها، ولكن تُستَنبط من هدايات قوله تعالى:
﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ الشورى: ٧ ،والآية فيها حذف احتباك[4]،

---

(١) ينظر: المنخول، أبو حامد الغزالي (ص: ٥٦٨)/ التوضيح في شرح مختصر الفرعي، ابن الحاجب (١/ ٣١٩)

(٢) أسهل المدارك شرح إرشاد السالك في مذهب الإمام مالك، الكشناوي (١/ ١٧٦)

(٣) ينظر: مكة المكرمة السمات والقسمات، ردة الله الطلحي (ص: ٢٦٧)

(٤) الاحتباك هو: كلامان بينهما علاقة تقابل، يُحذَفُ من كل منهما شيءٌ إيجازاً، بحيث يدلُّ ما ذُكِر في كلٍ منهما على ما حُذِف من الآخر، لفائدة (ينظر البرهان، الزركشي (١٢٩/٣)/ شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، محمود توفيق (٥٠/١))

حيث حُذِفَ من أولها "عذاب السالفين"، وحذف من كفتها الثانية "المنذَرِين"[١]، ولأنَّ اللفظ المذكور في الاحتباك يكون مقصودًا كاللفظ المحذوف، فإنَّ المذكور في كل كِفَّة له دلالات،

وتُسْتَنبط منه هدايات، ومن ذلك:

أنَّ ذِكْر قوله:﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فيه إشارة إلى أنَّ مكة هي نقطة المركز بالنسبة للأرض، لأنها نقطة بداية الدعوة، وانتشار النور، وهذا ما أثبته العلم الحديث، " فقد ثبت أنَّ الأرضَ اليابسةَ موزَّعةٌ حولَ بيتِ اللهِ الحرامِ بصورةٍ منتظمةٍ، هذه الحقيقة أَكَّدَتْها أحدثُ الدراساتِ العلميَّةِ لمركزِ البحوثِ الفلكيَّةِ، وذلكَ باستخدامِ الحاسبِ الآلي في حسابِ المسافاتِ بين مكَّةَ وعددٍ من المدنِ التي تقعُ في أطرافِ العالَمَيْن القديمِ والحديثِ"[٢].

وكما هو معلومٌ فإنَّ نطاق الدعوةِ يبدأ من نقطةٍ صغيرةٍ جداً تُعتَبر مركز لدائرة ثابتة تَتْسُع تدريجياً لتشمل كل مساحة المعمورة، وهنا يُظْهِر بعض السِّرِّ من جَعْلِ مكَّة المكرمة هي نقطةُ انطلاقِ الدعوة الإسلامية.!!

وحُذِفَ "المنذَرِين" في الكِفَّة الثانية لأنَّهم غير محدَّدين بنقطة جغرافية معينة، فدخل كلَّ المنذَرِين، وهذا يدلُّ على أنَّ الدعوة الإسلامية لها نقطة بداية وليس لها نقطة نهاية، من ناحية المكان ومن ناحية المستهدَفين، وهذا لا يُتَصوَّر إلا في الشكل الكروي، وفيه دليلٌ آخر على مركزية مكة وعلى الحكمة من مركزيتها.

ولعل في هذا الحذف أيضًا ما يُبَشِّر النبي صلى الله عليه وسلم آنذاك، ويبشر كلَّ الدعاة من بعده بأنَّ الدعوة الإسلامية ستبلغ الآفاق وتنتشر كشعاع الشمس.!! وهذا وإن لم يكتمل حدوثه حتى الآن؛ إلا أنِّي على يقين بأنَّه كائنٌ لا محالة، بإشارة الاحتباك في الآية، وبنص قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا"[٣].

٤. وجوب دخولها على المسلمين القادرين على أداء فريضة الحج، لقوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آل عمران: ٩٧.

ومكة هي المدينة الوحيدة التي يجب دخولها على بعض أفراد الأمة، أما سواها فحتى المدينة ليست واجبة على أحد، وذلك لأن مكة فيها المشاعر وأركان الحج،

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (١٧/٣٥٠)

(٢) اكتشفت الدراسة أنَّ جميع أطراف العالم القديم تبعد ثمانية آلاف كيلو متر عن مكة، وكذلك أطراف العالم الجديد، وهو قارة أمريكا شمالاً وجنوباً، واستراليا والقارة المتجمدة الجنوبية، وكلها تقع على مسافة ثلاثة عشر ألف كيلو متر من مكة، ولا يقابل مكة على سطح الأرض من الطرف الآخر يابسة، بل كلُّه بحرٌ.! (ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي (٢/٨٠)/ مجلة المنار، محمد رشيد رضا، ماضي الأزهر وحاضره ومستقبله (٣/ ٧٩))

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٨/١١٧) برقم ٧٤٤٠

"وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"[١].

٥.أنها مدينة آمنة بحرمة الله لها: قال تعالى:﴿ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ آل عمران: ٩٧ [٢].

حرَّم الله عز وجل مكة المكرمة منذ أن خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة، فهي مدينة آمنة، لا يُسْفَكُ فيها دم، ولا يُصاد صيد، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم افتتح مكة: " إن هذا بَلَدٌ حرمه الله يوم خَلَقَ السماوات وَالأَرْضَ، وهو حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَومِ القِيَامَةِ، وَإِنَّهُ لم يَحِلَّ الْقِتَالُ فيه لأَحَدٍ قَبْلِي، ولم يَحِلَّ لي إلا سَاعَةً من نَهَارٍ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ اللَّهِ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"[٣].

وهذا الحديث يصلح دليلًا على الخصيصة الأولى لمكة، وهي أوليتها، إذ لا بد أن يكون وجود مكة سابق لتحريمها، وقد حرَّمها الله يوم خلق السماوات والأرض، وحتى لو قيل المراد تقدير الحرمة وليس وقوعها[٤]، فإنه يصلح لإظهار مكانة مكة، إذ حُرِّمت قبل أن تُخلَق، وعلى ذلك يكون قد ثبت بالحديث الأوَّلية والحرمة معًا.

وبعد أن كانت مكة ممنوعة بمنع الله إياها بغير إيجاب الله فرض الامتناع منها على عباده؛ صارت بعد دعوة إبراهيم عليه السلام، المحكي في قوله جل جلاله:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾ البقرة: ١٢٦، صار فرض تحريمها على خلقه على لسان خليله إبراهيم عليه السلام، وواجبٌ على عباده الامتناع من استحلالها[٥].

ويأتي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ"[٦]، كدليلٍ آخر ينفي شبهة تحريم مكة بواسطة البشر، وهو ما يزيدها عظمةً وقداسة،

ففي هذ الحديث "تفهيم المخاطبين تعظيم قدر مكة بتحريم الله جل جلاله إيَّاها، ونفي ما يعتقده الجاهلون وغيرهم من أنهم يُحرِّمون ويحلِّلون كما حرَّموا أشياء من قِبَل أنفسهم، وأكَّد ذَلِكَ المعنى بقوله:"وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ"، فتحريمها ابتدائي من غير سبَبٍ يُعزَى لأحد، لا مَدْخل فيه لا لنبي ولا لعالم،

(١) العدة في أصول الفقه، القاضي أبو يعلى (٢/ ٤١٩)

(٢) ينظر: فضائل مكة، الحسن بن يسار البصري (ص: ١٧)

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: جزاء الصيد، بَاب: لا يحل القتال في مكة (٣/ ١٤) برقم (١٨٣٤)

(٤) هذا قول بعض العلماء والراجح خلافه، ينظر:كشف المشكل، ابن الجوزي (١٩٢/٢)/ شرح النووي على مسلم (١٢٤/٩)

(٥) جامع البيان، الطبري (٢/ ٥٤٢)

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: جزاء الصيد، باب: لا يعضد شجر الحرم (٣/ ١٤) برقم (١٨٣٢)

ثمَّ بين التحريم بقوله:"فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا" إلى آخره لأن من آمن بالله لزمه طاعته، ومن آمن باليوم الآخر لزمه القيام بما وجب عليه، واجتناب ما نهي عنه"(١).

٦.أنها مباركة والرزق فيها مضاعف، قال جل جلاله:﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ القصص: ٥٧.

ومن أسباب إتيان الثمرات من شتى بقاع الأرض في مكة، قصدها لأداء المناسك من المسلمين من كاقة القارات، يأتون ومعهم ما تميَّزت به بلادهم من أنواع التجارات، الأطعمة وغيرها، لأن الله أجاز ابتغاء المنافع مع الحج في قوله:﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ الحج: ٢٧ – ٢٨، فلا يتوقع أن تكون هناك مدينة يجتمع بها ما يجتمع في مكة من صنوف الثمار، وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن إبراهيم حرم مكة، ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلى ما دعا به إبراهيم لأهل مكة"(٢). والحديث مع دلالته على بركة مكة؛ يدلُّ على خصيصة أخرى، وهي أنها حُظِيَت بدعوة أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام.

٧.الوعيد بالعذاب الأليم لمن أراد الإلحاد فيها، لقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الحج: ٢٥.

فُسِّرَ قوله:(بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ) بِعَمَلٍ سَيِّئٍ، وَيُقَالُ أَيْضًا: بِالشِّرْكِ، فمَنْ أَشْرَكَ فِي بَيْتِ اللَّهِ عَذَّبَهُ اللَّهُ(٣)، ويحتمل سائر أنواع المعاصي والظلم، كما اختاره الطبري، وذلك أن الله عمَّ، ولم يخصّص به ظلم دون ظلم في خبر ولا عقل، فهو على عمومه(٤)، ويحتمل تخصيص مكة بذلك ليعلم الناس أن كثرة الخيرات وتضاعفها مما لا يعمل في إسقاط المساوئ فيه وهدمها، لما قاله صلى الله عليه وسلم:"صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المسْجِدَ الحَرَامَ"(٥)(٦).

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح، ابن الملقن (٣/ ٥١٩)

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الحج، باب: فَضْلِ الْمَدِينَةِ، وَدُعَاءِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيهَا بِالْبَرَكَةِ، (٢/ ٩٩١) برقم (١٣٦٠)

(٣) ينظر: تفسير مجاهد (ص: ٤٧٩)/ تفسير عبد الرزاق (٢/ ٤٠٠)

(٤) ينظر: جامع البيان (١٦/ ٥١٠)

(٥) أخرجه البخاري، كتاب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب: فَضْلِ الصَّلاَةِ فِي مَسْجِدِ مَكَّةَ (٢/٦٠) برقم (١١٩٠)

(٦) ينظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي (٧/ ٤٠٥)

وتكمن خطورة الأمر في أن مجرد الهم يؤاخَذ به العبد "فإن الرجل ليَهِمَّ بالخطيئة بمكة وهو في بلدٍ آخر ولم يعملها، فتُكْتَب عليه"(١)، والآية تدلُّ بقياس الأَولى أن الذنب في مكة مضاعف ومغلَّظ، وتدلُّ بمفهوم الضد أو المخالفة على ما دلَّ عليه الحديث بالنص.

فيُفهم من الآية أن الحسنات في مكة تُضاعف، كما أن السيئة فيها، بل.. والهمُّ بالسيئة فيها مغلَّظ ويُوجب العقوبة، سواءً كان من همَّ مقيمٌ فيها أو خارجها، وكل ذلك يدلُّ على شرف مكة، وحرمتها، وخصوصيتها بين سائر بقاع الأرض..

٨.منع دخول الكفار إليها، لقوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ التوبة: ٢٨

وفي الآية أمرٌ للمؤمنين، أي: لا تدعوهم أن يقربوا المسجد الحرام بدخولهم الحرم، وإنما عنى بذلك منعهم من دخول الحرم؛ لأنهم إذا دخلوا الحرم فقد قربوا المسجد الحرام، ولم يعنِ المسجد وحده، إنما عنى مكة والحرم، فلا ينبغي لمشرك أن يدخل الحرم بحال(٢)، فمكة المكرمة هي حريم المسجد الحرام، وهي له كسياجٍ تحيط به، تحول بين هوانه ممن لا يعظِّمه في نفسه، ويعمل على إهانته، والنيل منه، بعبادةِ ربه بما لم يُشَرِّعه لعباده(٣)، حتى قال القرطبي: "يحرم تمكين المشرك من دخول الحرم أجمع، فإذا جاءنا رسولٌ منهم خرج الإمام إلى الحِلّ ليسمع ما يقول، ولو دخل مشرك الحرم مستورًا ومات، نُبِشَ قبره وأخرجت عِظامه"(٤).

هذه جملة من خصائص مكة التي تستَنِدُ إلى نصٍّ قرآني، وهناك المزيد من الخصائص الثابتة بالسنة والآثار، أُجْمِل اثنين مما سأَستَنِدُ عليه في الكلام عن حضارة مكة، وليكون العدد عشرةٌ كاملةٌ، لتناسب كمال مكة.

٩.حفظها من الدجال: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ليس من بَلَدٍ إلا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ ليس له من نِقَابِهَا نَقْبٌ إلا عليه الْمَلَائِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا"(٥).

ذلك لأن المدينتين في معنى قلب الأرض ولسانها، ولسان الشرع إنما نطق مفصحًا بالمدينة، وقلب الإسلام بمكة، لأنَّ بها بيت الله الحرام(٦).

---

(١) جامع البيان (١٦/ ٥٠٨)

(٢) ينظر: تفسير الإمام الشافعي (٢/ ٩٠٩)/ أخبار مكة، الفاكهي (٣/ ١٤)

(٣) الإلحاد والظلم في المسجد الحرام بين الإرادة والتنفيذ، محمد بن سعد آل سعود (ص: ١٢٩)

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٠٤)

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: فضائل المدينة، باب: لا يدخل الدجال المدينة (٣/ ٢٢) برقم (١٨٨١)

(٦) ينظر: الإفصاح عن معاني الصحاح، ابن هبيرة (٥/ ١٠٣)

١٠. الإيمان يأرز إليها: عن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الإِسْلامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كما بَدَأَ، وهو يَأْرِزُ بين الْمَسْجِدَيْنِ كما تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إلى جُحْرِهَا"(١).

هناك خصيصة لمكة تُضَمُّ مع غيرها من النقاط التي ترجّح بكفتها على كفة المدينة، والخلاف بين العلماء في أفضل المدينتَين مشهورٌ وقديمٌ، هذه الخصيصة هي أن هناك سورة باسم مكة، وهي سورة "البلد"، وليس هناك سورة باسم المدينة، فإذا استصحبنا أن "أسماء سور القرآن ربانية"(٢)، وأنها تحمل معانٍ ومقاصد، ومن ورائها حِكَم؛ فلا بد أن يكون اختصاص مكة بسورة دون المدينة له أثرٌ في المعادلة.. وقد أحسن وأجاد الرجل من بني عجل في ردِّه على المخْتَلِفَين في فضل المدينتين، حاكمًا بينهما، وهو رجلٌ ناسك، كان مقيمًا بجدة، فقد حَكَم بقوله:

إنّي قضيت على اللّذّين تماريا * * * * * في فضل مكّة والمدينة فاسألوا
فلسوف أخبركم بحقٍّ فافْهموا * * * * * فالحُكم حينًا قد يجور ويعدلُ
فأنا الفتى العجليُّ جدّةُ مسكني * * * * * وخزانة الحرم التي .. لا تجهلُ
يا أيها المدنيّ إنّ أرضك فَضلُها * * * * * فوق البلاد .. وفَضْلُ مكةِ أُفضَلُ(٣)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريبًا (١/ ١٣١) برقم (١٤٦)

(٢) اختلف العلماء في مصدر أسماء سور القرآن الكريم، فقيل إنها اجتهادية، وقيل: إنها توقيفية، والسر الحكيم وراء أسماء السور، والمناسبة الدقيقة بين اسم السورة وموضوعها العام، ونحو ذلك من وجوه الإعجاز فى هذا الخصوص؛ يحيل أن تكون أسماء السور اجتهادية، والقول بالتوقيف اختيار الزركشي وآخرون (ينظر: البرهان: الزركشي (١/٢٧٠)،الإتقان، السيوطي (١/٥٢).

(٣) ينظر: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، السنجاري (٢/ ١٣٧)

الفصل الثاني: حضارة مكة المكرمة في ضوء الهدايات القرآنية

المبحث الأول: تعريف الحضارة لغة واصطلاحًا وبيان مفهوم الحضارة الإسلامية

المسألة الأولى– تعريف الحضارة في اللغة:

الرجوع للجذور اللغوية لأي مصطلح ذات أهمية قصوى، فقد يكون هناك اتِّفاق وتلاقي بين معنى المفردة في اللغة وبين وضعها كمصطلح لشيءٍ معين من ذوي الاختصاص، وإن لم يكن هناك تطابق أو تقاطع فإن المعنى اللغوي قد يشير إلى مرحلة من مراحل تطور المصطلح، ولذلك كان لا بد من تعريف الحضارة في اللغة.

قال الخليل: الحَضَرُ: خلافُ البَدْو، والحاضِرة خلاف البادية لأن أهل الحاضرة حَضَروا الأمصارَ والديار. والباديةُ يُشبِهُ أنْ يكونَ اشتِقاق اسمه من: بدا يبدو أى بَرَزَ وظَهَرَ، ولكنّه اسم لزم ذلك الموضع خاصَّةً دونَ ما سِواه،

والحَضْرَةُ: قرب الشَّيء، تقول: كنت بحَضرةِ الدار، وضَرَبْتُه بحَضْرَة فلانٍ، وبمَحْضَره.

والحاضِرُ: هُمُ الحَيُّ إذا حَضَروا الدارَ التي بها مُجتَمَعهُم فصارَ الحاضر اسماً جامعاً كالحاجِّ والسامِرِ ونحوِهما[1].

وقال الفيومي: حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْقَاضِي حُضُورًا شَهِدْتُهُ وَحَضَرَ الْغَائِبُ حُضُورًا قَدِمَ مِنْ غَيْبَتِهِ وَحَضَرَتْ الصَّلَاةُ فَهِيَ حَاضِرَةٌ وَالْأَصْلُ حَضَرَ وَقْتُ الصَّلَاة، وَالْحَضَارَةُ بِفَتْحِ الْحَاءِ وَكَسْرِهَا سُكُونُ الْحَضَرِ وَحَضَرَنِي كَذَا خَطَرَ بِبَالِي[2].

وعامة المعاجم التي اطلعت عليها تدور حول هذه المعاني التي أوردتها، إلا المعجم الوسيط، فقد زاد عن ذلك فجاء فيه:

الحضارة ضد البداوة وَهِي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني، وَمظَاهر الرقي العلمي، والفني، والأدبي والاجتماعي فِي الْحَضَر[3]،.

وهو أقرب إلى أن يكون اصطلاحًا معاصرًا لكلمة الحضارة..

وملخص هذه المعطيات المعجمية أن الحضور والحضارة تأتي بمعنى:

ضد الغياب –. الحي العظيم – خلاف البدو – الإقامة في الحضر أي المدن — الوجود – كنا بحضرة ماء: أي عنده – التذكر لشيء في الذاكرة – بمعنى: قرب الشيء – بمعنى أتى– الحاضر الشاهد – الرقي المعنوي.

---

(١) العين (٣/ ١٠١)

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير (١/ ١٤٠)

(٣) المعجم الوسيط، الزيات وآخرون (١/ ١٨١)

المسألة الثانية – الحضارة في الاصطلاح:

الحضارة من المصطلحات التي كثرت تعريفاتها، وتباينت وجهات النظر في ضبطها وتحديدها، وذلك لتنوع خلفيات المعرِّفين، ولأنها مرَّت بمراحل متعددة، وأطوار متدرجة في النضج والظهور والاستعمال،

سأورد تعريفين اصطلاحيين لها، ثم ابني عليهما ما تبقى من مادة البحث، هما تعريف ابن خلدون باعتبار أن تعريفه كان مرجعًا لكثير من الكتَّاب عن الحضارة، ووِيليام ديورَانت لأن تعريفه محطة مهمة في التعرُّف على مصطلح الحضارة.

الأول: الحضارة هي تفنّن في التّرف وإحكام الصّنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، وتتكثّر باختلاف ما تنزع إليه النّفوس من الشّهوات والملاذّ والتّنعّم بأحوال التّرف وما تتلوّن به من العوائد(١).

الثاني: الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون؛ وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أَمِنَ الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التَّطلُّع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذٍ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها(٢).

وانطلاقًا من هذين التعريفَين تدورُ معظم الكتابات والأبحاث، لأن الأول يرى الحضارة هي الجانب المادي، والثاني يرى أنها الجانب المعنوي، والتمُّدن والمظهر ليس له مدخل في الحضارة، وهما تياران متوازيان في هذا الموضوع.

المسألة الثالثة – الحضارة في المفهوم الإسلامي:

أكثر تعريف مقنع بالنسبة لي في تحديد معنى الحضارة هو تعريف أحمد القصص، أحد المعاصرين المهتمين بضبط المصطلح، إذ وصل إلى تعريف جيِّد بعد تحليلٍ وتفنيدٍ وتوطئة.

وملخَّص مقدمته:

أن المجتمع هو مجموعة من الناس تؤلِّف بينهم علاقات مستمرّة ومنظَّمة، بها يقوم ذلك المجتمع وبتميّزها يتميّز، وهذا النظام الّذي يربط الأفراد فيشكلّ المجتمع إنّما هو مجموع ما يحمله هؤلاء الناس من أفكار ومشاعر وما يرعى شؤونهم من تشريعات وقوانين. فسلوك الإنسان وعلاقاته مع الآخرين تتحكّم بها مفاهيمُه التي هي مزيجٌ من الفكر والشعور، كما أنَّ التشريعات التي ترعى بها السلطة شؤون المجتمع، تتحكّم إلى حدٍّ كبير بعلاقات المجتمع، وبالتالي تؤثّر في نمط العيش فيه، وبناءً عليه فإنَّ المجتمع هو "مجموعة من الناس تربطهم أفكار ومشاعر وأنظمة"،...وهكذا، إذًا الحضارة

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ٢١٦)

(٢) قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورَانت (١/ ٣)

الإسلامية هي: "مجموعة الأفكار والمشاعر والأنظمة الَّتي جاء بها الإسلام وصاغ بها ما عُرِف في التاريخ بالمجتمع الإسلاميّ"(١).

نستطيع التعبير بصورة أخرى عن الحضارة الإسلامية بأنها "صبغة الدين التي صُبِغَ بها الجيل الأول، وينبغي الاصطباغ بها على مستوى الفرد والأمة"، لأنَّ الدين عبارة عن صبغة، تصبغ الفكر والوجدان، فتظهر على السلوك قال جل جلاله:﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ البقرة: ١٣٨، والآية تصرّح وتوضّح أنه لا صبغة أفضل من صبغة الله، بمعنى لا حضارة تنافس الحضارة الإسلامية، حقًّا لا أكمل، ولا أشمل من الحضارة الإسلامية.

المسألة الرابعة – مكونات الحضارة في القرآن الكريم:

بحسب التعريف الذي اخترناه للحضارة فإنها تهتم بالجانب الروحي للإنسان، وأنها عبارة عن فكر ومشاعر وأنظمة، فأين نجد تلك المكونات في الدين الإسلامي؟!

القرآن الكريم وهو منهج الإسلام يدعو إلى التدبُّر والتأمل وينمّي الفكر، ويلفت إلى نعمة العقل، ويعزّز من دوره في تحقيق الإيمان، ويصوغ تصوَّر الفرد عن الكون والحياة، ويهدم مفاهيم وتصورات خاطئة، ولذلك تعدَّدت المفردات التي تهدي لهذه القضية والميزة في القرآن الكريم، فتكرَّر فيه ما تصرف من مادة "عقل" في تسعٍ وأربعين موضعًا، ومن "فكر" و"فقه" في ثمانٍ وثلاثين موضعًا(٢)، وتغيير الحسبان بـ"لا تحسبن" و"لا يحسبن"، وغيرها من الألفاظ أو المعاني الدالة على اشتمال القرآن الكريم على المكوَّن الفكري للحضارة، إيجادًا، وتفعيلًا، وصيانةً..

وأول جوانب التغيير كان في القلوب التي هي محل الفكر، فرُكِّز على الجانب العقدي المتمثَّل في محاربة الشرك وبناء التوحيد الخالص في القلوب، ولذلك تعتبر العقيدة هي المكوَّن الأول والأساسي لصبغة الله تعالى، كما هو واضح في قوله:﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ البقرة: ١٣٥- ١٣٨، وصبغة الله هنا تعني، فطرة الله، ودين الله، الذي هو الإسلام، والمعنى: اتبعوا دين الله والزموا دين الله، ومن أحسن من الله دينًا(٣)، وهي الآية الوحيدة التي جاءت فيها مفردة (صِبْغَةَ ٱللَّهِ) في حين أن القرآن كله يدور حول هذه الصبغة، تكوينًا وإصباغًا، وكأنها

(١) نشوء الحضارة الإسلامية، أحمد القصص (ص: ٢٠)

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص: ٤٦٨-٤٦٩، ٥٢٥)

(٣) ينظر: تفسير عبد الرزاق (١/ ٢٩٤)/ جامع البيان ط هجر (٢/ ٦٠٣)/ بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٩٨)

العنوان، وبقية المحتوى هو تفاصيل الدين، قال ابن القيم: "فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"(١).

وفي الآيات الكريمة ذُكِرَ المكوّن العقدي أولًا وهو الحنيفية ملة إبراهيم وأصول الإيمان، وخُتِمَت الآية الثانية بقوله:(وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ) فشملت الصبغة الإسلام بكل أركانه، وخُتِمَت الآية الأخيرة بقوله:(وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ) فتضمَّنت العبادة بمفهومها الشامل، وهو أنَّها:"اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة"(٢)،

وتضمَّنت كذلك ضرورة ثبات هذه الصبغة من خلال التعبير باسم الفاعل:(عَٰبِدُونَ)

وبذلك يظهر أن الحضارة الإسلامية تشمل الجانب العقدي والعبادي، ويدخل فيها العادات والوظيفة والدراسة إن ابتُغيَ بها وجه الله.

والقرآن يضبط ويوجّه ويوظِّف مشاعر المسلم، بعد أن يجعل لها محورًا تدور عليه، وتنبثق عنه، يظهر ذلك من هدايات قوله جل جلاله:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ المائدة: ٥٤، وقوله جل جلاله:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ البقرة: ١٦٥.

وهذا هو محور المحبة، ولذلك جاء من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم:"اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ"(٣)، وعلى وِفْق محبة العبد لربه تترتَّب محابُّه، من حيث الترتيب، ومن حيث كمية الحب، وضده، وهو البغض، جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَن أحبَّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكملَ الإيمان"(٤)،

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: "ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"(٥)، والأمر ليس وقفًا على الحب وضده، بل كلَّ المشاعر الإنسانية تَدورُ مع الدين، ومن ذلك قوله جل جلاله:﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ

(١) ينظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم (٣/ ٤١٨)

(٢) الزهد والورع والعبادة، ابن تيمية (ص: ١٠١)

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات (٥/ ٤٠١) برقم (٣٤٩١) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ، وضعفه الألباني

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٧/ ٦٩) برقم (٤٦٨١) وقال المحقق الأرناؤوط: حديث صحيح، وهذا إسناده حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة يرقم (٣٨٠)

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب: حلاوة الإيمان، (١/ ١٢) برقم (١٦)

﴿ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الروم: ٢ – ٥.

وفرحُ المؤمنين آنذاك قد يكون لانتصار الروم على الفرس، أو لانتصار المسلمين على المشركين في بدر لتوافقهما(١)،

وأيًّا كان فالآية دليلٌ على تأثير الدين على المشاعر حيث تدور معه، فتفرح لعلوّه، وتحزن لإنكسار شوكة المسلمين.

والقرآن الكريم بشريعته المعجزة فصَّل نظام الحياة ووضع الحدود والعقوبات على التجاوز والتعدَّي، وحدَّد العلاقات والحقوق والواجبات بين أصغر تجمُّع منظَّم هو الأَخِلَّاء مرورًا بالأسرة، فالعشيرة، .....إلخ

وهكذا إلى أكبر وجود، وهو الأمة، فوصف طبيعة العلاقة بين الراعي والرعية، وواجب كلٌّ منهما تجاه الآخر، بل. ونظَّم علاقة الأمة وحقوقها وواجباتها مع الأمم الأخرى، ولذلك نجد في أحكام القرآن منظومة متكاملة وواضحة من النظام الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في الإسلام،

فلا يوجد من حيث الحاجة أي مجال لشيء خارج عن الدين يمكن أن يَصِيغَ فكرَ ومشاعرَ الفرد والأمة، ولا يوجد أي تشريع ونظام هو أحكم، أو أولى بالاحتكام إليه...

هذا العرض لمكونات الحضارة تضمَّن ودلّل على أن مصدر الاستمداد الأول للحضارة هو الوحي، قرآنًا وسنة، وأي حضارة غير مستمَدَّة من الوحي هي حضارة بشرية الوضع، لا تصلح للبقاء، ولا تصمد أمام المنافسة، ولذلك كانت كلها إلى زوال، إلا هي ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ الفتح: ٢٨.

ويتَّضِحُ مما سبق أن مكونات الحضارة قد وُجِدَت في أعلى صورها في القرآن الكريم، وفي أعلى مستوياتها التي تطيقها البشرية، ليكون الناتج الفردي أن الحياة كلها بالله ولله كما أمر الله جل جلاله:﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ١٦٢، وعلى مستوى الأمة، سموٌ، ونبلٌ ورقي، تحقيقًا لقوله:﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١١٠ .

وبناء على هذا التحديد والضبط للحضارة وفق الفهم الإسلامي لها؛ والتدليل على اشتمالها على كل مكونات الحضارة؛ نستطيع أن نجزم بأن أكثر العصور ازدهارًا بالحضارة الإسلامية هو عصر النبوَّة، وأكثر الأمة تحضُّرًا ورقيًّا إنسانيًّا هم الصحابة، فقد ربَّى النبي صلى الله عليه وسلم جيلًا صارت حقيقة الحضارة الإسلامية متمثِّلة فيه لدرجة المطابقة، حيث كانوا قرآنًا يمشي على الأرض، فلم تكن هناك فجوة بين النظرية والتطبيق، والواقع والمثال.

(١) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٨٦)

وأما ما نراه في حاضر الأمة من المسافة بين المنهج والمنهجية فهو ناتج عن عوامل أثَّرت على عملية التحضُّر، أو الاصطباغ بالدين.. لا الصبغة لأن الصبغة ثابتة ومحفوظة، ومحتَفِظة بذات القوام واللون.

ولأنه لا بد أن يكون للحضارة زمانٌ ومكان، فإذا سلمَّنا بأن أكثر الأمة تحضُّرًا هم الصحابة ثم الذين يلونهم؛ فلا بدَّ من الجزم بأن أكثر المدن تحضرًا هي مكة والمدينة، وأن مكة هي عاصمة الحضارة، وأول مستقبِل للحضارة من المصدر السماوي، وأول مُصَدِّر عالمي لها في كل أنحاء المعمورة، وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

المبحث الثاني: علاقة مكة بالحضارة الإسلامية وتأثيرها عليها

لم تكن المباحث السابقة مجرد توطئة وتمهيد للكتابة عن حضارة مكة، بل كانت بداية حقيقية لهذا المبحث. فقد ظهرت من خلالها معالم تلك الحضارة ومقوماتها ومراحلها ضمنًا، فلم يبقَ إلا تجلية الصورة، وزيادة بعض نواقصها.

يمكن تمييز نوعين من العلاقة بين مكة والحضارة الإسلامية، ويدور الأثر معهما، **أجملهما في المسألتين التاليتين:**

المسألة الأولى– علاقة مكة بمضمون الحضارة الإسلامية وتأثيرها عليه:

مكة المكرمة جزء من مضمون الحضارة، ومؤثرة في مكونات الحضارة نفسها، التي هي الأفكار والمشاعر والقوانين المنظِّمة للحياة، وتظهر من خلال بعض خصائص مكة التي ذكرنا طرفًا منها، والتي هي مع الإضافة عليها:

١. احتوائها على البيت الحرام، أعظم بيت لله في الأرض، وتؤدَّى فيه أول عبادة بعد الشهادتين.

٢. أنها قبلة للمسلمين ولا تُقْبَل الصلاة إلا بالتوجُّه إليها، لأن البيت الحرام يتوسَّطُها.

٣. وجوب دخولها بصورة مقنَّنَة لأداء مناسك الحج والعمرة، فهي جزء أصيل في الركن الخامس من أركان الإسلام.

٤. فيها بدأ نزول الوحي الذي يحمل مادة الحضارة، فهي أول مستقبل أرضي لمادة الحضارة، وأول مفعِّل لها.

٥. منها بدأ تصدير ونشر الحضارة الإسلامية في الآفاق، وهي سابقة للمدينة في ذلك، لأن المدينة كانت الموقع الثاني لتصدير الحضارة من حيث التوقيت الزماني(١).

٦. أنها مركز الأرض، وهذا يعني سهولة إنسياب مادة الحضارة على كل اليابسة بصورة سريعة وسلسة.

٧. الإيمان يأرز إليها، وهذا يعني أنها آخر محاضن الحضارة الإسلامية بكل مكوناتها ومادتها، فلو قدَّرنا اندثار الحضارة الإسلامية عن الأرض، فإنَّ مكة آخر موقع جغرافي تنطمس فيه معالمها.

وكل هذه الخصائص تشترك في أنها جزء أصيل من مادة الحضارة الإسلامية التي هي الدين، بعقيدته وعباداته ومعاملاته، فكر، ومشاعر، وقوانين، أو أنها الوعاء الحامل للحضارة والمحافظ عليها، والناقل لها..

المسألة الثانية– علاقة مكة بإنسان الحضارة وتأثيرها عليه:

النوع الثاني من علاقة مكة بالحضارة هو علاقتها بالإنسان، وهذه تختلف عن العلاقة الأولى بأن

(١) كل هذه الخصائص تم ذكرها والتدليل عليها في مبحث فضائل وخصائص مكة، ينظر (ص: ٨) من هذا البحث.

تأثيرها في المستهدَف بهذه الحضارة، وهو في الأصل عامة الخلق لقوله:﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ سبأ: ٢٨

ولكن المتأثِّر الأول بها هو إنسان مكة، من خلال تأثيرها على الأجواء والبيئة التي يعيش فيها، لأن عملية التحضُّر بمنهج القرآن يحتاج إلى توفُّر أسباب رئيسة، وعوامل مساعدة،

وكلها تمثَّلت في خصائص مكة، والتي منها:

١. أنها مباركة، والرزق فيها مضاعف، وهذه تأثيرها على إنسان الحضارة في أنه بدون الحاجات الفسيولوجية الأساسية وأولها المأكل والمشرب؛ لا يحيا أصلًا، فبها حياة جسده، وكذلك هي همُّه الأول في صرف الجهد والفكر في تحصيلها، ولذلك لما أمر الله جل جلاله بالعبادة تكفَّل بالرزق، لتهدي الآية إلى عدم الانصراف بالسعي للرزق عن الغاية الحقيقية من خلق الإنسان، فقال تعالى:﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ الذاريات: ٥٦ – ٥٨، قال ابن عاشور: "فالله تعالى خلق الناس على تركيبٍ يقتضي النظر في وجود الإله ويسوق إلى توحيده، ولكن كسب الناس يجرف أعمالهم عن المهيع الذي خلقوا لأجله"(١)، وقد امتن الله تعالى على أهل الحرم بسوق أرزاقهم في قوله:﴿ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا ﴾ القصص: ٥٧، إذًا إنسان مكة له ضمانٌ أكبر من الضمان العام، إذ جُعِلَ مقرُّه وموطنه تُجْبَى إليه الثمرات من كل حدب وصوب، بكل أنواعها، فهي كثيرة عددًا، وكثيرة بحلول البركة فيها، فينبغي أن يكون همُّ حاجته للطعام أقل من غيره.

٢. أنها آمنة اكتسبت الأمن التام بتحريم الله لها، وجَعْل ذلك مستقرًّا في القلوب ، قال ابن جريج: "وبلغني أن الرجل كان يلقى قاتل أخيه، أو أبيه في الكعبة، أو في الحرم أو في الشهر الحرام، فلا يَعْرِض له"(٢)، وأهل مكة كانوا يرتحلون تجَّارًا آمنين في البلدان، لا يخافون شيئًا؛ لحرمتهم؛ لأن الناس يحترمونهم لمكان الحرم، حتى إن كان الرجل منهم ليصاب في حيٍّ من الأحياء؛ يقال: هذا حرمى؛ فيخلى عنه، وعن ماله؛ تعظيمًا لذلك المكان(٣).

والشعور بالأمن هو أحد الحاجات الأساسية للإنسان ليكون فاعلًا ومتفاعلًا، فمع الخوف لا ينجز الإنسان، لا لنفسه ولا لغيره، أو يكون للخوف تأثيرٌ سألبٌ على إنجازه، وما مشروعية صلاة الخوف ببعيدٍ عن هذا المعنى والتحليل، ولذلك كانت قضية توفُّر الأمن والشعور بالأمان حاضرة في كتابات المسلمين وغير المسلمين عن الحضارة ومتطلباتها، وفي تعريف "ديورانت" للحضارة أظهر الأمن كشرط لابتدائها، حيث قال: "وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أَمِنَ الإنسان من

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥ –٢٦)

(٢) أخبار مكة، الأزرقي (٢/ ١٣٢)

(٣) ينظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي (١٠/ ٦٢٠)

الخوف، تحرَّرت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذٍ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها"[1].

هاتان الخصيصتان (الرزق والأمن) تمثِّلان رأس الرمح لإنسان الحضارة، إذا توفَّرتا لا تكون هناك عوامل قوية تحول بينه وبين تمثُّل حضارته عقيدةً، وعبادةً، وسلوكاً، ولذلك أتت المطالبة بالعبادة بعد المنَّة بتوفير الطعام والأمن في قوله:﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴾ قريش: ٣ - ٤.

٣. مضاعفة أجر الصلاة فيها، لقوله صلى الله عليه وسلم: "صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ، إِلَّا المسْجِدَ الحَرَامَ"[2]،

فإن كان المسجد الحرام مساويًا لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم فقد عُلم فضله، فكيف وقد قَالَ عَامَّةُ أَهْلِ الْأَثَرِ وَالْفِقْهِ أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بِمِائَةِ صَلَاةٍ؟![3].

وهذا تأثيره على إنسان الحضارة في أن الثواب والعقاب الآخروي يشبه العقاب والحدود الدنيوية، فقد شُرِعت العقوباتِ والحدود صوارفَ عنَ القبيح والفسادِ[4]، وترتيب الثواب ومضاعفته على عملٍ معيَّن هو تحفيز ووترغيب في العمل والتزام الحق، الذي هو مادة الحضارة.

والترغيب في الصلاة بالذات أثره أوسع من الترغيب في غيرها، لأن للصلاة مفعول متعدٍّ يتمثَّل في تقليل الفحشاء والمنكر، فكلما زادت الصلاة والخشوع قلَّت المعاصي بكل أنواعها لقوله جل جلاله:﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ العنكبوت: ٤٥ .

٤. الوعيد بالعذاب الأليم لمن أراد الإلحاد فيها، لقوله تعالى:﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الحج: ٢٥، والمراد بالظلم سائر المعاصي والذنوب[5]، وهذا تأثيره على إنسان الحضارة في حجْزه ومنعه عن كل أنواع المعاصي، رهبة وخوفًا من الوعيد في الآية، فيجتمع له مع الخصيصة السابقة الإكثار من الطاعات مع ترك الذنوب، فيحقق التقوى بشقِّيها، وهذا يعني تمثُّل الحضارة وتجنّب عوامل التأثير على قوة لونها في النفس، وبذلك يُفْتَرض في إنسان مكة أن يكون هو الأتْقَى، أي الأكثر تحضُّرًا في الأمة..

---

(١) قصة الحضارة (١/ ٣)

(٢) سبق تخريجه (ص:١١)

(٣) ينظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال (٣/ ١٨١)/ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، أبو عمر القرطبي (٦/ ١٨)

(٤) ينظر: الواضح في أصول الفقه، أبو الوفاء علي ابن عقيل (٤/ ١٠٦)

(٥) ينظر: ينظر: جامع البيان، الطبري (١٦/ ٥١٠)

٥. يُمنَع دخول الكفار إليها، ومحروسة من الدجال، لقوله جل جلاله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ التوبة: ٢٨ .وقوله صلى الله عليه وسلم:"ليس من بَلَدٍ إلا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إلا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ"(١)، ودخول الكافر والمشرك تأثيره على إنسان الحضارة في مكة أنه جُنِّب أحد العوامل الصادة عن الصراط المستقيم، والمقاوِمَة لعملية اصطباغه بالدين، وفي القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تبيّن أن الكفار وأهل الكتاب يصدون المؤمنين عن الحق، من ذلك قوله جل جلاله:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ البقرة: ١٠٩،

وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ١٤٩،

وقال جل جلاله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الأنفال: ٣٦.

ولا يُرَدُّ على ذلك بإمكان تحقيق عملية الصد والإفساد عن طريق الإعلام الحر، والأجهزة الذكية، والسماء المفتوحة، لأن المعايَشة والمخالطة تختلف عن تلقّي رسالة الكافر عن بُعْد، وعليه.. ينتج عن هذه الميزة أن خلو أجواء مكة عن أنفاسٍ كافرة؛ له أثرٌ إيجابي على دين أهلها وحضارتهم..

٦. أنها من محاب الله جل جلاله ورسوله صلى الله عليه وسلم، لقوله صلى الله عليه وسلم: "والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إلى اللَّهِ وَلَولا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ ما خَرَجْتُ"(٢).

وأثر هذه الخصيصة على إنسان الحضارة أن محبته لله تورثه محبة مكة المكرمة، "لأن محبة الله توجب محبة ما يحبه الله من الواجبات، وكراهة ما يكرهه من المحرمات، وتورث الموافقة في جميع الأحوال"(٣)، وهذا يؤدي إلى زيادة تعظيم مكة وتعلُّق القلب بها، وهو في حدِّ ذاته عبادة وقربى. ثم ينتقل العبد من أنه محبٌّ لله إلى أن يكون محبوبًا عند الله، لأنَّ الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم في محبته لمكة المكرمة دليلٌ من العبد على حبه لله عز وجل، وينتج عنه محبة الله له، لقوله جل جلاله:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ آل عمران: ٣١، وكلما زادت محبة العبد، أثمرت محبة من الله له، وهكذا دواليك... فما أعظمه من عمل، وما أجله من أثر!!

(١) سبق تخريجه (ص:١٢)

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب: المناقب، باب: في فضل مكة (٥/٧٢٢) برقم (٣٩٢٥) وقال: حديث حسن غريب صحيح

(٣) ينظر: اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، السَّلامي الحنبلي (ص: ١٢٦)

٧. أن القرآن الكريم نزل بلغة ولهجة أهل مكة، لقوله جل جلاله:﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥، ولذلك كان الرهط[١] المكلف بكتابة القرآن إن اختلفوا في لفظ رفعوه إلى عثمان رضي الله عنه فيقول: اكتبوه بلغة قريش، فإن القرآن نزل بلغتهم[٢]، وأثر هذه الخصيصة هي أن القرآن الكريم هو لغة الحضارة الإسلامية، وقد نزل باللغة العربية وعلى لسان قريش سكان الحرم، فهم أقرب الناس لفهم القرآن، وأَوْلَاهم بالوقوف على أسراره البلاغية، وإشاراته اللغوية التي برهنت على أنه رباني المصدر، وما هو بقول بشر.

المسألة الثالثة – مراحل الحضارة في مكة المكرمة وكيفية الاستفادة منها:

على ضوء ما تأسَّس من مفهوم وتفاصيل للحضارة الإسلامية، وبالمرور المتأنِّي على تأريخ مكة المكرمة يبدو أن الحضارة مرَّت بأربع مراحل مختلفة، كل مرحلة لها مواصفاتها المميزة لها، أولها هي ما قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي حقبة تاريخية طويلة تمتد من نزول آدم عليه السلام إلى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم،

وقد وثَّق القرآن منها بعض الأحداث المهمة ذات الصلة المباشرة بالحضارة الآتية عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم، من تلك الأحداث: إسكان إبراهيم لذريته بمكة ودعائه لها بالأمن وسعة الرزق، وبناء البيت، ودعوة الناس للحج، وحجم البحث لا يسمح بأي تفصيل في هذه المرحلة.

أعقبت تلك المرحلة الطويلة مرحلة أخرى بعد البعثة وقبل الهجرة، عمرها عشر سنوات، تميزت بـ:

١. أنها كانت محلِّية غير منقولة إذ يتنزل جبريل بالوحي على محمد صلى الله عليه وسلم في مكة، وهذه خصيصة لا توجد إلا في المدينة. – بأنها كانت تركِّز على الجانب الباطن، ببناء العقيدة، فغالب صبغة المرحلة عقدي المحتوى.

٢. تتَّسم بالقوة في المضمون والأسلوب، وتلك خصائص القرآن المكي.

٣. تتميز بالاصباغ المتتابع بالدين بحسب النازل من القرآن الكريم، وأنتج ذلك ثبات، وقوة البنية الدينية المتكاملة في الرعيل الأول من الصحابة، فكانوا أكثر الناس تشبُّعًا بالحضارة الإسلامية.

٤. واجهت معارضة قوية وممانعة حادة وأذي شديد، وأسهم ذلك في رسوخ المؤمنين لقوة تمحيصهم بتلك الابتلاءات.

---

(١) هم: عبد الله بن الزبير، سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام (كتاب المصاحف، السجستاني (ص: ٥٥)

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب (٤/ ٣١٢٩)

٥. حدث فيها أعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم بعد القرآن، ومنها حادثة الإسراء والمعراج[١].

٦. بدأ خلالها نشر الحضارة الإسلامية إلى خارجها، ووجدت محضنًا آمنًا في المدينة المنورة.

تلتها مرحلة جديدة اختلفت عن سابقتها، هي مرحلة عهد النبوة بعد الهجرة، فقدت فيها تلك الميزات السابقة، وأصبحت الحضارة منقولة إلى مكة من المدينة، وتواصل في هذه المرحلة تكميل مكونات الحضارة، وكانت تتَّسم بالهدوء وسرد التفاصيل، وتركِّز على التنظيم على كل المستويات، والعهد النبوي يمثل أسطع عقد الحضارة.

ثم تلتها مرحلة طويلة تبدأ من إكمال الدين وموت النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلى وقتنا الحاضر، وقد مرَّت بتعرُّجاتٍ كثيرة وارتفعت وازدهرت في عصور، وتدهورت وخفَّت في عصورٍ أخرى، والله يُقَيِّض لها في كل قرن من يعيدها سيرتها الأولى، وهذا أعظم ما يميزها أنها حضارة خالدة لا تنتهي ولا تغيب. وأقصر طريق لاستعادة قوة تلك الحضارة هو الاستفادة من خصائص عهد النبوة في مكة ثم المدينة لأنه الطريقة المُثْلَى لإعادة صياغة الفرد والأمة.

ومن خلال هذا العرض الموجز لحضارة مكة المكرمة تبيَّن أنها عاصمة الحضارة الإسلامية، وعنوان الإسلام، ولا يضيرها أن أهلها لم يكونوا جميعًا من السابقين، فيكفيها أن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان مكيًّا مولدًا، ونشأةً ، وتأسيسًا لحضارةٍ أشرقت على كلِّ الأرض، وما زلنا ننتظر لها فجرًا جديدًا بعد ليلٍ طويل.

(١) الراجح أن الإسراء والمعراج وقع يقظة بجسد النبي صلى الله عليه وسلم واتفقوا في أنه كان بمكة (ينظر: الفصول في السيرة، ابن كثير (ص: ١٠٨)

خـــاتمـــــة البـــحـــث

بعد هذه الجولة السريعة بين تلال مكة وباحات الحرم، أحمد الله تعالى على توفيقه وإكماله لهذا البحث منَّةً منه وفضلًا، فاللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد بعد الرضا، ثم أورد أهم النتائج والتوصيات:

أولًا– النتائج:

١. أسماء مكة التي وردت في القرآن الكريم ولا خلاف فيها خمسة، ومن لطائف ذلك توافقها مع عدد الصلوات الفريضة في اليوم والليلة، بعلاقة وجود المسجد القبلة في مكة المكرمة..

٢. انفردت مكة بأسماء لم تُطْلَق على غيرها سائر الدهر.

٣. كل معاني أسماء مكة المكرمة لها دلالات وعلاقة مباشرة بحضارة مكة.

٤. انحصرت أسماء مكة في عشر آيات، موزَّعة في المصحف، ويتوافق العدد عشرة مع الكمال عند العرب.

٥. أكثر أسماء مكة ورودًا في القرآن الكريم هو (ٱلۡبَلَدِ) حيث ذُكِرَ أربع مرات، واحدة منها موصوف بـ(ٱلۡأَمِينِ).

٦. ذُكِرَ المسجد والبيت الحرام في القرآن سبع عشرة مرة، في توافقٍ لطيفٍ مع عدد ركعات الصلوات.

٧. اختُصت مكة بأوَّليات لا ينافسها فيها مدينة على الأرض، واختُصت بتسمية سورة باسمها، وهي:(ٱلۡبَلَدِ).

٨. أشارت هدايات القرآن الكريم إلى أن مكة المكرمة هي مركز الأرض، وأنها تتوسط الدنيا، فأصبحت مركزيتها لا تستند إلى الاكتشافات والنظريات العلمية فقط.

٩. الحضارة في المفهوم الإسلامي تعني صبغة الله، والتحضُّر يعني الاصطباغ بالدين.

١٠. مكة المكرمة جزء أصيل من الحضارة الإسلامية، ولها تأثير على مضمون الحضارة وعلى إنسان الحضارة.

ثانيًا – التوصيات

١. كتابة المزيد من الأبحاث عن حضارة مكة بصورة أعمق وأشمل.

٢. التأصيل لمصطلح الحضارة وفق التصور الإسلامي وفي ضوء الهدايات القرآنية.

٣. استصحاب الهدايات القرآنية عند الكتابة في أي موضوع يخص الإسلام، لأنَّ دلالتها أدق.

٤. الفصل بين مصطلحات "الحضارة" و"الثقافة" و"المدنية" وعدم الخلط في الكتابة عن إحداها لتوضيح استقلالية معانيها والاختلاف بينها، وإبراز علاقة كل مصطلح بمنهج الإسلام.

٥. رعاية الأبحاث المنطلقة من الهدايات القرآنية، سواء كانت في العلوم الدينية أو العلوم الإنسانية والتطبيقية.

٦. طباعة أبحاث المؤتمر في مطبَّقات بعد تلخيصها، ونشرها بصورة واسعة لترسيخ مفهوم الهدايات.

٧. رعاية مشروع هدايات السنة المطهرة، لتكميل هدايات القرآن الكريم عبر مشروع هدايات الوحي.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا وشفيعنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

فهرس المصادر والمراجع

أولاً القرآن الكريم

١. الإتقان، السيوطي (٩١١هـ)
٢. الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي حكم عليها ابن كثير
٣. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، الفاكهي (٢٧٢هـ)
٤. أخبار مكة وما جاء فيها من الأثار، الأزرقي (٢٥٠هـ)
٥. اختيار الأولى، السَّلامي (٧٩٥هـ)
٦. أسهل المدارك في مذهب مالك، الكشناوي (١٣٩٧هـ)
٧. الإفصاح عن معاني الصحاح،محمد بن هبيرة (٥٦٠هـ)
٨. الإلحاد والظلم في المسجد الحرام، محمد بن سعد آل سعود
٩. الانتصار للقرآن، الباقلاني (٤٠٣ هـ)
١٠. بحر العلوم، السمرقندي (٣٧٣هـ)
١١. البرهان في علوم القرآن، الزركشي (٧٩٤ هـ)
١٢. تاريخ ابن خلدون (٨٠٨ هـ)
١٣. التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، الخطاط (١٤٠٠هـ)
١٤. تأويلات أهل السنة، الماتريدي (٣٣٣هـ)
١٥. تحبير الموشين في التعبير بالسين والشين، الشيرازي
١٦. تحرير ألفاظ التنبيه، النووى (٦٧٦هـ)
١٧. التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ)
١٨. تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٧هـ)
١٩. تفسير الإمام الشافعي محمد بن إدريس (٢٠٤هـ)
٢٠. تفسير عبد الرزاق (٢١١هـ)
٢١. تفسير مجاهد (١٠٤هـ)
٢٢. تفسير مقاتل بن سليمان (١٥٠هـ)
٢٣. التفسير من سنن سعيد بن منصور (٢٢٧هـ)
٢٤. تفسير يحيى بن سلام (٢٠٠هـ)
٢٥. التقفية في اللغة، البَندنيجي (٢٨٤ هـ)
٢٦. التمهيد لما في الموطأ من المعاني و، أبو عمر القرطبي
٢٧. التوضيح في شرح المختصر، ابن الحاجب (٧٧٦هـ)
٢٨. التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٨٠٤هـ)
٣٩. سنن الترمذي (٢٧٩ هـ)
٤٠. شذرات الذهب دراسة في البلاغة القرآنية، محمود توفيق
٤١. شرح النووي على مسلم (٦٧٦هـ)
٤٢. شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام (٧٦١هـ)
٤٣. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الفاسي (٨٣٢هـ)
٤٤. صحيح البخاري محمد بن إسماعيل (٢٥٦هـ)
٤٥. صحيح مسلم بن الحجاج أبو الحسن (٢٦١هـ)
٤٦. العدة في أصول الفقه، القاضي أبو يعلى (٤٥٨هـ)
٤٧. العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٠هـ)
٤٨. غريب الحديث، ابن قتيبة (٢٧٦هـ)
٤٩. غريب الحديث، الخطابي (٣٨٨ هـ)
٥٠. الفائق في غريب الحديث، الزمخشري (٥٣٨هـ)
٥١. الفصول في السيرة، ابن كثير (٧٧٤هـ)
٥٢. فضائل مكة والسكن فيها، الحسن بن يسار (١١٠هـ)
٥٣. القرى، محب الدين الطبري
٥٤. قصة الحضارة، ويليام جيمس ديورَانت (١٩٨١م)
٥٥. كتاب المصاحف، عبد الله السجستاني (٣١٦هـ)
٥٦. كشف المشكل، ابن الجوزي (٥٩٧هـ)
٥٧. الكليات، الكفوي (١٠٩٤هـ)
٥٨. مجمل اللغة، ابن فارس (٣٩٥هـ)
٥٩. المحرر الوجيز، ابن عطية (٥٤٢ هـ)
٦٠. المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (٤٥٨هـ)
٦١. مدارج السالكين، ابن القيم (٧٥١ هـ)
٦٢. مرعاة المفاتيح، الرحماني المباركفوري (١٤١٤هـ)
٦٣. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، اليحصبي (٥٤٤هـ)
٦٤. المطلع على ألفاظ المقنع، ابن أبي الفتح (٧٠٩هـ)
٦٥. المعجم المحيط، اللجمي وآخرون
٦٦. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم
٦٧. المعجم الوسيط، الزيات وآخرون

٢٩. التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي (١٠٣١هـ)	٦٨. مقاييس اللغة، ابن فارس (٣٩٥هـ)
٣٠. جامع البيان، الطبري (٣١٠هـ)	٦٩. مكة المكرمة السمات والقسمات، ردة الله الطلحي
٣١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (٦٧١ هـ)	٧٠. منائح الكرم في أخبار مكة، السنجاري
٣٢. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت:٦٧١هـ)	٧١. المنخول من تعليقات الأصول، الغزالي (٥٠٥هـ)
٣٣. جغرافية مكة المكرمة، عبد الله دهيش	٧٢. موسوعة الإعجاز العلمي، محمد راتب النابلسي
٣٤. جمال القراء وكمال الإقراء، السخاوي (٦٤٣هـ)	٧٣. نشوء الحضارة الإسلامية، أحمد القصص
٣٥. جمهرة اللغة، ابن دريد (٣٢١هـ)	٧٤. نظم الدرر، البقاعي (٨٨٥)
٣٦. الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري (٣٢٨هـ)	٧٥. الهداية الى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب (٤٣٧هـ)
٣٧. الزهد والورع والعبادة، ابن تيمية (٧٢٨هـ)	٧٦. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، السيوطي (٩١١هـ)
٣٨. سنن أبو داود (٢٧٥ هـ)	٧٧. الواضح في أصول الفقه، علي ابن عقيل (٥١٣هـ)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
مشكلة البحث	٤
الفصل الأول: التعريف بمكة المكرمة وبيان خصائصها	٥
المبحث الأول: التعريف بمكة المكرمة	٥
المبحث الثاني: فضائل مكة المكرمة الواردة في القرآن الكريم	١١
الفصل الثاني: حضارة مكة في ضوء الهدايات القرآنية	١٨
المبحث الأول: تعريف الحضارة لغة واصطلاحًا وبيان مفهوم الحضارة الإسلامية	١٨
المبحث الثاني: علاقة مكة بالحضارة الإسلامية وتأثيرها عليها	٢٤
الخاتمة: النتائج – التوصيات	٣٠
قائمة المصادر والمراجع	٣٢
فهرس الموضوعات	٣٤